

العنف اللفظي وأثره على النمو النفسي للطفل

- دراسة وصفية لتلاميذ تلقوا عنفا لفظيا من المدرسين -

د / نصير بن حالة، أستاذ محاضر^أ،

علم النفس العيادي، معالج نفسي

جامعة

الجزائر2

ملخص:

إن مختلف النظريات العلمية التربوية الحديثة تتفق على أن العنف بمختلف أوجهه سواء اللفظي، المعنوي أو المادي يترك الأثر العميق على نفسية الفرد وتوازنه. لقد أثار انتباهنا ونحن نمارس العلاج النفسي بالجزائر العاصمة ارتفاعا ملحوظا لأولياء يطلبون المساعدة النفسية لأن ابنهم تعرض لمعاملة قاسية ولعنف لفظي صادر من المعلم.

نظرا لأهمية الموضوع وحساسيته ارتأينا القيام ببحث ميداني على مجموعة من الأطفال تقدموا لطلب المساعدة النفسية بدافع تعرضهم لاعتداء كلامي عنيف صادر عن معلمهم. سوف نحاول التقرب من هذه الشريحة ودراسة أثر ذلك التصرف على حياتهم النفسية، المعرفية والسلوكية. إن النماذج العيادية المستوحاة من هذه الشريحة تعتبر كمعيار هام لدراسة وتحليل العلاقة السببية بين الألفاظ العنيفة والتوازن النفسي المعرفي للتلميذ.

الكلمات الأساسية: العنف اللفظي - النمو النفسي - النمو المعرفي -
الاضطراب السلوكي - الكفاءة النفسية.

Résumé

Toutes les théories scientifiques éducatives contemporaines s'entendent sur le fait que les différentes formes de la violence, qu'elle soit physique ou verbale laissent des traces sur l'équilibre psychique. En exerçant notre travail de psychothérapeute à Alger centre, notre attention a été attirée sur un nombre important d'enfants nous consultant suite à une violence verbale émanant de l'enseignant.

Vu l'importance du thème et sa sensibilité, nous essayerons d'effectuer une recherche sur une population d'enfants scolarisés ayant subi une violence verbale de la part de leurs enseignants. Nous rapprocherons de ces enfants et étudierons les effets de ces agissements sur leur vie psychique, cognitive et comportementale. Les exemples cliniques tirés du terrain peuvent être des indices précieux qui nous permettront d'analyser les liens existants entre violence et l'équilibre psychique ,

.....

Mots-clefs : Violence verbale, Développement psychologique, développement cognitif, Trouble du comportement, prise en charge.

إن علاقة الطفل بالمعلم تعد علاقة خاصة وأساسية من أجل إتمام نموه النفسي الوجداني بسلام. أهمية هذه العلاقة تكمن في كون المعلم أو المربي يحل محل الأولياء، ليس فقط من الناحية العاطفية الوجدانية التي تعد أساسية في عملية التقمص النفسي الاجتماعي، إنما يضاف إليها الجانب المعرفي الفكري الذي يستند أساسا على الجانب الأول.

من هذا المنطلق، يمكن اعتبار أن الدور الذي يقوم به المعلم ليس فقط إعطاء معلومات جافة متصلة للتلميذ، لو كان الأمر كذلك لما أستطاع هذا الأخير الاستفادة من تلك المعارف أو استيعابها، لكن هذه المعلومات الفكرية إن امتزجت باتجاهات وجدانية مفعمة بالحب والقبول والمطاوعة تسمح باستمرار لعملية التحصيل والنمو بمفهومه الواسع وبطريقة سليمة.

لكن ماذا يحدث يا ترى إن كان المعلم يغفل هذا الجانب ويحل محل الوجدان الإيجابي بوجدان أليم أو عدواني؟ لقد بينت مختلف النظريات الحديثة أن العنف واستعمال القوة من أجل الوصول إلى غاية ما، مهما كان نوعها، لا يمكن أن يعطي الثمار المنتظرة. إن استعمال هذه القوة أحيانا يعد سهل التطبيق ويسمح لنا عادة بإزالة التوتر أو التقليل منه. هذا ما يقوم به أحيانا بعض المربين أو حتى الآباء عندما يقوموا بتهديد الطفل أو تخويله بغرض الحصول على غاية ما. أهم الأمثلة نجدها لدى بعض الإباء عندما يقولون، على سبيل المثال لأبنهم "إن لم تقم بكذا... سوف أضربك؛ سوف... الخ" وبدون شك أننا نحقق نسبيا ما نريده بهذه الطريقة، لكن ماذا يحدث على مستوى الجهاز النفسي للطفل الذي تلقى هذا التهديد المخيف؟

هذا ما سنحاول معرفته من خلال هذا البحث الميداني. لقد أثار انتباهنا، بينما كنا نقوم بالكفالة النفسية بعيادة بالجزائر العاصمة، ارتفاعا ملحوظا لعدد الأولياء الذين طلبوا المساعدة النفسية نتيجة تعرض أحد أبنائهم إلى اعتداء لفظي عنيف وأحيانا، مهين من طرف المعلم. لقد فكرنا في تحديد مجموعة

بحث تتكون من عدد من الأطفال تعرضوا إلى اعتداءات لفظية مهينة من أحد المعلمين ونحاول، في إطار تطبيق منهجية علمية تتناسب مع طبيعة البحث، معرفة مختلف الانعكاسات النفسية، المعرفية والسلوكية على هؤلاء الأطفال. إن الهدف من هذه الدراسة هو محاولة جذب الانتباه إلى ظاهرة بدأت تكثر في مؤسساتنا التربوية من أجل معرفة ما تخفيه هذه الظاهرة والكيفية التربوية التي ينبغي اتباعها من أجل التحكم فيها والحد منها.

اعتبارات نظرية وإكلينيكية

1 - من الناحية الدينية

أهم ما يمكن الاستناد عليه ونحن نحرر هذا البحث هو ما جاء في توصيات ديننا الإسلامي الحنيف الذي أكد، سواء في الكتاب المنزل أو الأحاديث الصحيحة، عن أهمية الحوار اللين والابتعاد عن كل أشكال العنف. هذه التوجيهات السمة والتي نصبها في الجانب النفسي التربوي يمكن التماس بعض الآيات من القرآن الكريم التي تحث عن العمل بالليونة :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .⁽¹⁾

إن تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة لديه اتجاهها نفسياً بعيد المدى، والشجرة ليس فقط كونها كائناً حياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إنما تتضمن أيضاً الغذاء والطاقة، هل من المعقول أن نتغذى بغذاء مسموم؟

أما الآية الموالية والتي ينصب معناها في آداب وأخلاق المعاملة والطريقة المثلى التي ينبغي تبنيها في التربية، نجدها بوضوح في سورة "آل عمران"

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .⁽²⁾

إن مفهوم "غلظة القلب" هنا يعني كل تصرف مشحون بخشونة صلبة أو عنف. السؤال الذي نود طرحه من الناحية التربوية هنا، لماذا التأكيد على الليونة والابتعاد عن كل أشكال القوة . الجواب هو أن الخشونة (غليظ القلب) تؤدي إلى النفور (لانفضوا من حولك) والنفور يؤدي إلى كف معرفي وتوقف عن الاستيعاب الفكري أو العلمي .

أما الأحاديث الشريفة فهي الأخرى كثيرة ومتنوعة، نذكر منها الصورة المثالية الرائعة الجمال والتي اقتبسناها من أحد الأحاديث الشريفة : «عن أبي قتادة الأنصاري، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يصلي وهو حامل زينب ابنة ابنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهي لأبي العاص ابن الربيع، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها . رواه البخاري»⁽³⁾.

إن هذا التصرف الصادر عن النبي الشريف غني عن كل تعليق، ويكفي أن نتمتع في المكانة التي أعطاها الرسول، صلى الله عليه وسلم، للطفل والتي فاقت كل اعتبار. يكفي القول انها تقترب من مكانة الله عز وجل، بما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب الله في صلاته دون الانقطاع عن مداعبة ابنة ابنة وهو قائم في الصلاة.

في حديث آخر: « عن اسامة بن زيد، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يأخذني فيقعدني على فخذه يقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ويقول: اللهم ارحمهما فإنني رحمتهما »⁽⁴⁾. هذا الحديث هو الآخر في غاية السمو بحيث يمزج الحركة (الضم بالذراعين) مع الصوت (الدعاء) ليبين المشاعر النبيلة الطاهرة المتوجهة نحو الطفلين.

2 - من الناحية النفسية العيادية :

من المعروف أن النمو النفسي للطفل يمر بمراحل مختلفة ومعقدة منذ ولادته حتى وصوله سن الرشد. هذه المراحل مهما اختلف المربون والباحثون في علم النفس في تفسير مبادئها، كل حسب اتجاهه إلا أنهم متفقون جميعا على أن الطفل حساس وغير ناضج ويتطلب من الوالدين أولا والمربين ثانيا أن يقوموا

بمرافقته خلال نموه محترمين بذلك احتياجاته الفيزيولوجية وميوله النفسية. ومن المسلم به أيضا أن الجهاز المعرفي للطفل، ونقصد به مختلف القدرات الفكرية مثل: التفكير، التركيز، التذكر، التجريد وغيرها، لا يمكن فصلها عن الجانب الحسي الوجداني. فهما عمليتان متكاملتان ومتفاعلتان فيما بينهما. لوتطرقنا في هذا السياق إلى النظريات الأولى التي تناولت الجانب المعرفي لدى الطفل نجد أنها تؤكد على أن ذكاء هذا الأخير ينمو تبعا لمراحل متداخلة فيما بينها وذات علاقة وثيقة بشخصية الأم أو المربية. إن الباحث 'بياجيه' (Piajet)⁽⁵⁾ يؤكد في هذا الإطار على ضرورة احترام مراحل النمو الحسية الحركية والتي هي تساير وتتفاعل باستمرار مع المحيط الخارجي.

نفس الاتجاه جاء به الباحث 'فالون' (Wallon)⁽⁶⁾ والذي رغم مرور سنوات كثيرة على نظرياته إلا أنها مازالت سارية المفعول إلى يومنا هذا. إن التفكير عند الطفل، على حد تعبيره يبدأ منذ سن الرابعة من العمر ويتطلب رعاية وحماية خاصة من طرف الذين هم مكلفون بتربيته.

في سياق آخر، لا بد من الإشارة أن الحساسية المفرطة التي يمر بها الطفل والمراهق في الأطوار المختلفة من النمو تعد في حد ذاتها مراحل صعبة، تتطلب من المربي والمعلم مطاوعة الطفل والتقرب منه حتى يعبر بسلام هذه المراحل. حتى ولو لم يتعرض لإحباط أو صراعات واردة من المحيط الخارجي، فإن جهازه المعرفي قد يتوقف أو يضطرب في مساره الإنمائي. يقول في هذا المجال الباحث 'سي موسي' حول الأطفال الذين هم في حالة رسوب مدرسي « فجأة، وفي الوقت الذي يحتاجون فيه (التلاميذ) إلى كامل قواهم الفكرية، فإنهم يصبحوا يعيشون ظواهر غريبة وغير مفهومة : نقص الدافعية والإرادة، فقدان الذاكرة، الصداق وآلام أخرى، كل هذا يحدث عندما يحاول الطفل بذل جهد في الدراسة⁽⁷⁾ .

لا شك أن الباحث هنا يتكلم عن الأزمات، التي يمكن اعتبارها عادية والتي يمر بها كل تلميذ عند إنقائه من مرحلة إلى أخرى.

إذا كانت الأمور تسير بهذه الدقة والحساسية، هذا يعني أن دور المدرسة والمعلم يبقى أساسيا في كل عملية تحصيل دراسي. هذا التحصيل الذي هو 'بيداغوجي' بالدرجة الأولى ويعد في الحقيقة مكملا للعملية التربوية التي تبدأ بالعائلة وتتبلور في المدرسة. « إن وظيفة التربية هي جعل الأفراد قادرين على تفعيل أقصى حد من قابليتهم . وإعطائهم كامل الإمكانيات التي تمكنهم من توظيف ذكائهم.(...) بهذا فإن وظيفة التربية هي إعادة إنشاء وتوظيف المعطيات الثقافية التي نشأ عنها الفرد » .⁽⁸⁾

من هنا يتبين لنا جليا أن العملية التربوية في غاية الأهمية ودور المربي هنا إما يكمل ويقوي وأحيانا يصلح السيئ مما تعلمه الطفل إما يقوم بعكس ذلك، وهنا قد يفوت فرصة هامة للطفل كانت قد تساعده لتجاوز العقبات .

إشكالية البحث

إذا سلمنا بهذه المعطيات فما عسانا أن نجده عندما يتعرض الطفل في أحد أطوار نموه المعرفي إلى عنف مهما كان نوعه ؟. فالعنف اللفظي على سبيل المثال، ولو كان يبدو بسيطا في نوعيته فأقل ما يمكن قوله هو أنه يصطدم باستعداد فكري ووجداني لطفل لم يكن يتوقعه أو ينتظره. إن الباحثة 'روزين دوبري'، عند تحليلها لشروط التحصيل الدراسي الجيد رأت أنه لا بد أن يتم في جو خال من الصراعات . إن حدث عكس ذلك « فإن آليات الإنشطار والإسقاط تحل محل آليات الاستحواذ والاستيعاب، إن الفرد في هذه الحالة لا يستطيع تطوير النشاطات المرتبطة بآليات التسيق والتكيف والتميز » .⁽⁹⁾

في إطار آخر، هذه المرة في باب الفحوصات النفسية للراشدين. لقد أجريت «دراسة على 300 رجلا، كلهم طلبوا المساعدة النفسية. تبين نتائج هذه الدراسة أن 31 % أي ما يناسب 93 فردا، تلقوا عنفا ماديا أو لفظيا في حياتهم الدراسية. مع الإشارة أن معظم هؤلاء الأفراد طلبوا العلاج النفسي من أجل : مخاوف مختلفة، الشك في الهوية وغيرها » .⁽¹⁰⁾

في نفس السياق، إن الباحثة 'بوقاف' توضح أن العديد من الأبحاث الإكلينيكية أجريت على الأطفال والمراهقين الذين عاشوا عنفا مهما كان مصدره ينتج عنه : « تأخرا في النمو العقلي والوجداني، وإضرابات التعلم، سلوك عدواني، إكتئاب، مخاوف، حصر، سلوكات انتحارية وإضطرابات ذهانية ».⁽¹¹⁾

أما في الأبحاث التي تناولت ظاهرة العنف في المدارس، في أغلب الأحيان تناولته على أنه سلوك صادر بين التلاميذ فيما بينهم أو تجاه المعلمين. من بين هذه الأبحاث نذكر ما جاء به الباحث علي مشريط (2005) عند تحليله لمظاهر وأسباب العنف الصادر عن التلاميذ في المؤسسات التربوية بالغرب الجزائري. لقد توصل إلى تحديد، كنتائج أولية لبحثه « 17 نوعا من أشكال العنف، نذكر منها: الشتم، الضرب... وغيرها ».⁽¹²⁾

إن أهمية هذه الدراسة يكمن في كونها أحصت بدقة السلوكات العنيفة الصادرة من المتدربين. في هذا الصدد السؤال الذي ينبغي الوقوف عنده أليس من الشرعي التساؤل عما يختفي وراء هذا السلوك العنيف؟ هل يمكن اعتبار كردة فعل لضغوط هي الأخرى سلوكات عنيفة صادرة من المؤطرين أو الأساتذة ؟

هناك أبحاث ميدانية أخرى تهتم بالجانب الوقائي للعنف في المدارس هي الأخرى تناولت بالدراسة أنواع العنف في المؤسسات التربوية. إن الباحث بوشلاغم ي. (2005)⁽¹³⁾ في مقال هام تناول دور الإرشاد النفسي والتربوي في مقاومة العنف في الوسط المدرسي. توصل في نهاية بحثه إلى إعطاء مجموعة من التوصيات ينبغي العمل بها حتى يحد من ظاهرة العنف. من بين هذه التوصيات نذكر: « ضرورة تكوين الأستاذ وإعداده إعدادا جيدا من الناحية التربوية والعلمية (...) ضرورة إحترام التلميذو إحترام أرائه وأفكاره والسماح له بالتعبير عنها في حدود العملية التربوية ».⁽¹⁴⁾

اعتمادا على هذه المعطيات، سواء النظرية منها أو العيادية تؤكد كلها على حقيقتين أساسيتين الأولى تؤكد أن الطفل لكي ينمو نفسيا ومعرفيا لا بد

من جو آمن مفعم بالحب والرضا والتجاوب بينه وبين المربي. الحقيقة الثانية أن هذا الجو غير متوفر في مؤسساتنا بحكم وجود سلوكات عنيفة صادرة بطريقة أو بأخرى من المربين تجاه الأطفال المتدربين . اعتمادا على هذه المسلمات يمكن صياغة إشكالية بحثنا على المنوال التالي: هل يمكن القول أن السلوكات والتصرفات والاتجاهات العنيفة والعدوانية الصادرة من المعلمين والمؤطرين يمكن أن تؤثر سلبيا أي تعيق النمو العام للطفل وتسبب له اضطرابات سلوكية ؟ ما هو الأثر النفسي الذي يتركه العنف اللفظي على توازن الطفل؟ وكيف يتم هذا التأثير؟ وما هي النتائج النفسية والسلوكية التي تترتب عنه ؟

الفرضيات

ف 1 إن العنف اللفظي الذي يصدر من طرف المعلم قد يترك أثرا نفسية سلبية ويكون بمثابة صدمة نفسية يترتب عنها اضطراب في الجهاز المعرفي مما يسبب فشلا في التحصيل الدراسي .

ف2 إن العنف اللفظي الصادر عن المربي قد ينتج عنه اضطراب سلوكي، من مظاهر هذا الاضطراب: التمرد في البيت والمؤسسة التربوية والهروب المدرسي.

مجتمع البحث

يتكون مجتمع البحث الأصلي من أفراد تم التكفل بهم واستفادوا من مساعدة نفسية بعيادة متعددة الخدمات مقرها بالجزائر العاصمة . تستقبل هذه المؤسسة الأشخاص الذين يعانون نفسيا سواء من أجل التكفل بهم، القيام بتقارير نفسية واختبارات نفسية أو بفرض التوجيه . فتحت هذه المؤسسة أبوابها سنة 1990 وهي تنشط إلى يومنا هذا.

مجموعة البحث

معايير انتقاء مجموعة البحث

لقد تم انتقاء مجموعة بحثنا بطريقة قصديه من خلال دراسة ملف الأطفال والمراهقين الذين تقدموا لطلب الفحص النفسي، سواء بقصد العلاج أو

طلب تقرير نفسي . واحتراما لمعايير منهجية محددة، تم إقصاء من مجموعة البحث الأفراد الآتية:

- الراشدين لكلا الجنسين
- الأطفال الغير متمدرسين
- الأطفال الذين تقدموا للفحص بدافع ليس مرتبطا بالعنف اللفظي.

وصف وتحديد مجموعة البحث

الجدول الموالي يتضمن تحديد ووصف مجموعة البحث.

الأفراد	الذكور	الإناث
العدد	10	8
المجموع	18	

الجدول (1) تحديد ووصف مجموعة البحث

تتكون مجموعة بحثنا من 18 طفلا كلهم متمدرسون 10 ذكورا و8 إناثا، سنهم يتراوح ما بين 7 و12 سنة . كلهم تلقوا عنفا لفظيا أو معاملة سيئة من طرف المعلمين.

منهجية البحث : نظرا لطبيعة الموضوع وخصوصياته التي تتمركز في البحث عن الآثار النفسية التي يخلفها الاعتداء الكلامي العنيف على الفرد، ونظرا لرغبتنا في تأكيد مدى إشترك مجموعة التلاميذ في الأعراض السلوكية التي يعيشونها، فإن المنهج الوصفي نراه الأكثر تلاؤما مع الموضوع. فهو، وعلى حد تعبير ' زرواتي ر.' «ينصب على ظاهرة من الظواهر التعليمية أو النفسية (...) بقصد تشخيصها وكسب جوانبها وتحديد العلاقة بين عناصرها». ⁽¹⁵⁾ كما أننا لجأنا إلى المنهج العيادي نظرا لكوننا قمنا بدراسة حالة عيادية كل واحدة على حدا هذا المنهج على حد تعبير 'بيرون' « هو الطريقة التي تسمح لنا معرفة السير النفسي بهدف تكوين بنية واضحة عن الحوادث النفسية التي تصدر عن الفرد ». ⁽¹⁶⁾

ولهذا، تبيننا هذين المنهجين كإطار علمي نعمل ضمنهما ونحدد ضمن المنهجية العلمية النقاط التي نسعى لمعرفةا.

وسائل البحث

إن المقابلة العيادية النصف موجهة هي التي اعتمدنا عليها بدرجة كبيرة في هذا البحث. أهم تعريف نراه يتناسب مع هذه المقابلة هو ما جاء به "بكد/ش ك." حيث يعرفها « لقاء بين النفسي والمفحوص تقوم بينهما تبادلات الما- بين- ذاتية التي يلعب فيها الحدس العيادي دورا رئيسيا ».⁽¹⁷⁾

نضيف على ما قاله الكاتب، الهدف هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن الظاهرة المدروسة من أجل فهم الميكانزمات الداخلية التي تتحكم فيها. إن هذه المقابلة تحتوي على 6 مواضيع وتشمل على 20 بندا. المواضيع الستة هي : معلومات شخصية، الحياة الدراسية، الحياة العائلية، نوعية العلاقة مع المعلم، نوعية العلاقة مع التلاميذ، ردود الفعل تجاه التصرفات العنيفة. هذه المواضيع ليست ثابتة إنما يتم توسيعها أو مراجعتها حسب طبيعة المعاش النفسي للفرد. يتم جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات على كل مفحوص ثم يتم تحليل ودراسة البيانات على كل الأفراد عند الانتهاء من جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات.

الإطار المكاني والزمني للبحث

الإطار المكاني

لقد تمت هذه الدراسة بعيادة نفسية⁽¹⁸⁾ تستقبل الأفراد (أطفال، مراهقين وراشدين) بطريقة حرة وعفوية. يعمل بهذه العيادة ثلاث أخصائيين نفسانيين، رجلا وامرأتان. تقدم المساعدة النفسية بهذه المؤسسة حسب الطلب كما يتم القيام بتقارير طبية نفسية حسب طبيعة وظروف الحالة.

الإطار الزمني

لقد حددت سنتي 2010- 2011 وتم إحصاء كل الأطفال والمراهقين الذين تم فحصهم خلال هذين السنتين. لقد تم تعيين هذين السنتين نظرا للعدد

المرتفع لطالبي الفحص مقارنة بالسنوات الأخرى، بالإضافة إلى ثبات واستقرار الأخصائيين النفسانيين الثلاثة خلال هذين السنتين.

التعريف بأهم المفاهيم

العنف اللفظي: لغويا حسب 'المنجد في اللغة العربية المعاصرة'، أن كلمة "عنف": « شدة، قسوة، حدة » تأخذ دلالات كثيرة. لو أخذناها بالمفهوم اللفظي هي « معاملة قاسية وخالية من الرفق »⁽¹⁹⁾

العنف اللفظي اصطلاحاً: كل سلوك، حركة أو لفظ يراد به تخويف التلميذ والتغيير من سلوكه وإحداث الضرر النفسي له. أهم تعريف يناسب هذا الطرح هو ما جاء في قاموس علم النفس، هي « كلمة مشتقة من اللاتينية violencia والمنحدرة من vis أي "قوة" هو استعمال مفرط للقوة منكبرين لكل القوانين، الحقوق وسيادة الشخص ».⁽²⁰⁾

النمو النفسي لغة: من نما أي كبر وزاد حجماً. و'النفسي' من " نفس " وهو مبدأ الوجود والفكر والحياة . المزج بين الكلمتين "نمو نفسي": « الكبر والتطور في الحياة ».⁽²¹⁾

النمو النفسي اصطلاحاً : هو مجموعة القدرات المعرفية الوجدانية والنفسية الحركية التي ينمو في إطارها الطفل والتي تتطلب رعاية وغطاء خاصا يوفره الراشدون سواء الإباء على مستوى العائلة أو المعلمون في المدارس. أهم النظريات التي اعتمدنا عليها هي تلك التي جاء بها "جون بياجى" في دراسته للنمو المعرفي و"أونري فالون" عند دراسته للنمو الوجداني.⁽²²⁾

نتائج البحث

1- نتائج فحوصات الأفراد حسب السن والطور الدراسي

سوف نتناول في هذا المجال فحوصات الأفراد، الذكور والإناث حسب سنهم وأطوارهم الدراسية . سوف نخرج عن كل شريحة بمناقشة بسيطة للنتائج .

1-1- فحوصات الذكور حسب السن و لطور الدراسي

الطور الدراسي			السن			المتغيرات
ثانوي	متوسط	إبتدائي	-13	-9	- 5	
			15	12	8	
0	3	7	1	2	7	العدد
10			10			المجموع

جدول (2) توزيع الذكور حسب السن والطور الدراسي

تعليق على الجدول

يتبين لنا حسب الجدول السابق أن عدد الذكور الذين طلبوا الفحص النفسي هم 10. سنهم يتراوح ما بين 5 و12 سنة . ينتسبون في أغلبهم إلى الطور الابتدائي . من بين الخصوصيات التي يتصف بها هؤلاء الأطفال أنهم يدخلون المدرسة للمرة الأولى، هذا ما يجعلهم ذي حساسية كبيرة لكل الألفاظ والسلوكات التي يتلقونها . إن هذه المرحلة التي تتصف بالصراعات الكبيرة التي يعيشها الطفل والتي هي مرتبطة بالانفصال الأول مع الأم، تجعلهم حذرين ومستوعبين لكل الحركات سواء بمفهومها الإيجابي أو السلبي. فالأمر ليس سهلا عليهم حتى ولو كان المعلم متفهما ولينا في معاملاته .

1-2- نتائج فحوصات الإناث حسب السن والطور الدراسي .

الجدول الموالي يوضح توزيع الإناث حسب السن والطور الدراسي.

الطور الدراسي			السن			المتغيرات
ثانوي	متوسط	إبتدائي	-13	-9	- 5	
			15	12	8	
1	6	1	2	5	1	العدد
8			8			المجموع

جدول (3) توزيع الإناث حسب السن والطور الدراسي

تعليق على الجدول

يتبين لنا حسب الجدول السابق أن عدد الإناث الذين طلبوا المساعدة النفسية هو 8. سنهن يتراوح في أغلبه ما بين 9 و15 سنة . كلهن تلقين عنفا لفظيا من طرف المعلم . من الخصوصيات الهامة التي يتميز بها هذا السن هو بداية المراهقة. ليس من باب الصدفة أن هذا السن تكرر ست مرات وذلك نظرا لكون المراهقة تعطي أهمية كبيرة لصورة الذات. إن الحساسية الكبيرة التي تتصف بها الفتاة في هذا السن تجعل من التعبير اللفظي العدواني أو العنيف سلوكا ذا صبغة صدمية، قد تحدث صراعا أو زعزعة في جهازها النفسي مما قد يحدث عنه اضطرابات نفسية مرضية مختلفة. أما عن الطور الدراسي، نلاحظ أن كل هؤلاء الفتيات ينتسبن إلى الطور المتوسط، كما هو معروف أن البرنامج الدراسي لهذا الطور صعب ومعقد مقارنة بالأطوار السابقة. بحيث أن الدروس في هذه المرحلة تتطلب قدرات معرفية تعتمد على التجريد، هذا ما يزيد الوضع تعقيدا ويتطلب رعاية خاصة للمراهقة .

2- نتائج فحوصات الأفراد حسب نوعية العنف اللفظي المتلقى

سوف نتناول هنا نوعية العنف اللفظي الذي تلقاه الأفراد، الذكور ثم الإناث مثلما هو وارد أثناء المقابلة العيادية.

2- 1 نوعية العنف اللفظي المتلقى لدى الذكور

الجدول الموالي يوضح توزيع الذكور حسب نوعية العنف

نوعية العنف اللفظي	شتم	تهديد	كلام محل بالحياء
العدد	2	6	2
المجموع	10		

جدول رقم(5) توزيع الذكور حسب نوعية العنف

تعليق على الجدول

نلاحظ أن الأطفال العشرة تلقوا عنفا لفظيا. هذا العنف نجده في الأنواع الثلاثة : الشتم، التهديد، والكلام المحل بالحياء. إلا أن العنف المرتبط بالتهديد هو الأكثر تكرارا. إن هذا التهديد كان يتمثل في: التهديد بالضرب، أو العقاب الخطير مثل الضرب بالمسطرة على ظهر اليد، أو إخبار الولدين بالأخطاء المرتكبة أو ضرب أحد التلاميذ ضربا مبرحا أمام أعين التلاميذ الآخرين .

2- 2 نوعية العنف اللفظي المتلقى لدى الإناث

الجدول الموالي يوضح توزيع الإناث حسب نوعية العنف

نوعية العنف اللفظي	شتم	تهديد	كلام محل بالحياء
العدد	4	1	3
المجموع	8		

جدول (6) توزيع الإناث حسب نوعية العنف

تعليق على الجدول

يتبين لنا حسب الجدول السابق أن الفتيات الثمانية تلقين عنفا لفظيا وتضررن منه إلى درجة طلب المساعدة النفسية. أنواع العنف حسب درجة تكراره هو: الشتم بمختلف أنواعه مثل (الله ينعل آلي ربّاوك). تهديدات مختلفة مثل (الطرد من المدرسة، الإحالة على مجلس التأديب، إستدعاء الوالدين). هذا التهديد يقع عادة عندما يكون المعلم في حالة غضب لا يستطيع التحكم في أعصابه. أما الكلام البذيء يتمثل في الألفاظ التي تمس بسمعة البنت أو كرامتها مثال ذلك (إعطاء ألقابا مسيئة لاسم البنت، كتحريفه أو المساس بهياتها الجسمية.

أما عن الألفاظ المحلة بالحياء هي التي تمس بشرف البنت وسمعتها مثل ' (لباسك يشبه لباس العاهرة) وغيرها .

3- توزيع الأفراد حسب الدافع من الفحص

سوف نتناول في هذا المجال السبب الأول أو الأسباب التي دفعت بالأولياء لطلب المساعدة النفسية. سوف نتعرض إلى الذكور ثم الإناث. مع الملاحظة أن النسب المئوية المحصل عليها تعطي لنا فكرة عن المتغير ولا يمكن تعميمها وذلك نظرا لكون مجموعة البحث محدودة وغير ممثلة.

3- 1 توزيع الذكور حسب الدافع من الفحص. الجدول الموالي يوضح أهم الدوافع التي أتوا من أجلها.

الدافع من الفحص	من	كفالة نفسية	تقرير خبرة	تحويل القسم	تحويل المؤسسة
العدد	10/8	10/3	10/3	10/3	10/2
%	80%	30%	30%	30%	20%

الشكل (7) توزيع الذكور حسب الدافع من الفحص

تعليق على الجدول

من خلال الجدول السابق يتبين لنا أن الدافع من الفحص الأكثر تكرارا هو طلب المساعدة أو الكفالة النفسية. هذا الطلب يأتي بالدرجة الأولى من الوالدين. إنهم يعيشون في حالة ارتباك كبير ومفاجأة يصعب تحملها وخاصة إذا كان ابنهم في حالة نفسية وسلوكية عادية قبل ظهور أولى الأعراض. طلب تقرير خبرة يأتي في المرتبة الثانية بعد الكفالة النفسية . ظهر هذا الطلب لدى ثلاث أولياء من عشرة. إن هذا الطلب لديه ما يبرره وخاصة عند أحد الأطفال. هذا الأخير تلقى إهانات مضررة جدا تخص المساس بكرامته. إن المعلم شتمه ، ممثلا إياه بالخنثى (مستعملا ألفاظ الشارع).

أما عن الأولياء الذين يطلبون تغيير القسم أو المؤسسة عددهم مقدر ب 5 أطفال. اغلب هؤلاء قاموا بهذا الطلب بعد يأسهم من وجود حل، سواء مع إدارة المؤسسة أو المعلم. مع الإشارة أنه ولو غير الطفل المؤسسة هذا لا يعني أنه سوف يحل المشكل ويزيل الأضرار النفسية المترتبة عن العنف المتلقى.

3- 2 توزيع الإناث حسب الدافع من الفحص

الدافع من الفحص	كفالة نفسية	تقرير خبرة	تحويل القسم	تحويل المؤسسة
العدد	10/7	10/2	10/3	10/3
%	80%	40%	30%	30%

الشكل (8) توزيع الإناث حسب الدافع من الفحص

تعليق على الجدول

يتبين من خلال الجدول السابق أن أغلبية الحالات طلب فيها الأولياء كفالة أو مساعدة نفسية . هذا العدد المقدر ب 7 حالات من مجموع 10، يقترب من عدد الذكور الذين طلب الأولياء نفس المطلب. هذا يدل عن مدى حرص الأولياء وخوفهم من الأضرار التي مست توازن بناتهم.

هناك حالتان طلب فيها الأولياء القيام بتقرير خبرة نفسية بغرض رفع دعوة قضائية ضد المعلمة، بالنسبة للحالة الأولى. أما الثانية بغرض الاحتفاظ بالتقرير بغرض إستعماله في حالة تدهور أو عدم شفاء أبنيتهم. بالنسبة للتقرير الأول هو مرتبط بإهانة خطيرة قامت بها المعلمة تجاه الفتاة . لقد شبهت الأستاذة (الفتاة المراهقة) "بالعاهرة" وذلك نظرا لتضاييق المعلمة من لباس الفتاة، الذي يميل أكثر إلى اللباس الحديث.

فيما يخص طلب تحويل القسم أو المؤسسة، فهو يتشابه، سواء في العدد أو الدافع من الفحص مع الذكور. نفس الأمل نجده لدى الأولياء وهو الحصول

على حل سطحي وبسيط يريح الجميع. لكن كما سبق قوله، هذا الحل لا يزيل الآثار النفسية التي تلقاها الطفل.

4- توزيع الأفراد حسب الأعراض النفسية المرضية

سوف نتعرض في هذا المجال إلى أهم الأعراض النفسية المرضية التي إستتجناها على مجموع الأفراد، كما نتطرق أيضا إلى الدافع من الفحص حسب مطالب أولياء عند بداية الفحص النفسي.

4- 1 توزيع الذكور حسب الأعراض النفسية المرضية

الأعراض	الذاكرة	اضطراب في التركيز	رفض الذهاب للمدرسة	وتهور سلوك عدواني	تبول لإرادي	مخدرات	تدخين	هروب مدرسي	اكتئاب وأفكار انتحارية
العدد	10/5	10/5	10/5	10/4	10/2	10/2	10/2	10/0	10/0
%	50%	50%	50%	38%	25%	12%	12%	12%	12%

الشكل (9) توزيع الذكور حسب الأعراض النفسية المرضية

تعليق على الجدول

نلاحظ من خلال الجدول السابق أن أهم الأعراض النفسية المرضية التي سجلناها عن الذكور هي الاضطراب في التركيز والذاكرة. هذا يعني أن الجهاز المعرفي بالمفهوم الواسع للمصطلح هو أول ما يتأثر ومشكلة التركيز أو الانتباه ما هي إلا انعكاسا لهذا الأثر. ينجر عن هذا الأثر رسوبا مدرسيا وأحيانا يتسبب في إحداث انحرافات مختلفة. مشكلة التركيز هذه ما هي في الحقيقة إلا الشجرة التي تخفي الغابة. لو تمعنا في الأعراض الأخرى، مثل: الهروب المدرسي، السلوك المتمرد أو العدوانية هي الأخرى تنصب في نفس القالب والذي يدل عن صراع نفسي عميق ينحصر ما بين بين الرغبات الطفولية الكثيرة ومتطلبات الواقع القاسية.

بالنسبة للتبول اللاإرادي، بالرغم من أنه قليل التكرار إلا أنه يكشف عن نوع من النكوص والعودة للحياة الطفولية المبكرة. يستعملها الطفل في هذه الحالة كاختفاء وهروب من الواقع القاسي ليعود للتبعية النفسية البدائية المرتبطة بالأم.

أما تناول المخدرات والتدخين، بالرغم من أن عددهم محدودا، إلا أنه معبر جد. يمكن القول أن هذه الشريحة كان لديها تكوين هش في حياتهم الطفولية، والعنف اللفظي زاد من حدة هذه الهشاشة وأصبح هو العامل المفجر للسلوك الإنحرافي.

4- 2 توزيع الإناث حسب الأعراض النفسية المرضية

الجدول الموالي يحتوي على توزيع الإناث حسب الأعراض النفسية المرضية.

الأعراض	التركيز في اضطراب	للمدرسة	رفض الذهاب للمدرسة	هروب مدرسي	عدواني وتهور سلوك	تدخين	مخدرات	تبول لا إرادي	أفكار واكتئاب
العدد	8/4	8/3	8/3	8/3	8/2	8/1	8/1	1/8	8/1
%	50%	38%	38%	38%	25%	12%	12%	12%	12%

الشكل (10) توزيع الإناث حسب الأعراض النفسية المرضية

تعليق على الجدول

أول ملاحظة تثير انتباهنا في هذا الجدول هو التقارب الواضح بين الذكور والإناث في الأعراض النفسية المرضية . اضطراب في التركيز والذاكرة ورفض الذهاب للمدرسة تأتي في مقدمة الترتيب وهي تعبر عن نوع من الصراع النفسي الذي حال دون إمكانية الفتاة التركيز ومتابعة الدراسة.

إن السلوك العدواني والهروب يأتي في المرتبة الثانية بعد الاضطراب في التركيز. بالرغم من ذلك، فإن العدد لم يصل بالحدة التي نجدها لدى الإناث وذلك كون الفتيات، بحكم بنيتها النفسية الوجدانية وميلها للخجل والكتمان الاجتماعي لا

تعبّر عن صراعاتها بالسلوك المتهور الظاهري . لهذا السبب أيضا نجد نقصا في عدد المدخّنات والمتّاولات للمخدرات مقارنة بالذكور. في نفس الإطار ولنفس الأسباب نجد ارتفاع الأفكار الانتحارية والاكتئاب لديهن مقارنة بالذكور.

٢

استنتاج عام

إن دراستنا هذه ما هي في الحقيقة إلا التفاتة إلى بعض السلوكات المضرة التي تعمل في الخفاء والتي يمكن اعتبارها العدو السري والمتمثلة في العنف اللفظي بشتى أنواعه . لسنا مبالغين إن اعتبرناه كذلك لسبب بسيط لأن انعكاساته النفسية المضرة لا تظهر مباشرة على سلوك الفرد مثلما هو الحال في العنف المادي، وإنما تفرز سمومها بطريقة متواصلة وغير مباشرة، ولو لا طلب المساعدة النفسية لما توصلنا إلى معرفته وتحديد أضراره.

من باب التذكير، لقد انطلقنا في تفكيرنا هذا من إشكالية بسيطة تتمثل في التساؤل عن نوعية الآثار النفسية التي يتركها العنف اللفظي الصادر من المعلم نحو التلاميذ ؟ لقد انطلقنا من فرضيتين عمليتين مفادهما أن العنف اللفظي يؤثر على التلميذ الذي يتلقاه على مستويين: الأول معرفي وذلك بإحداث اضطرابا في الجهاز المعرفي مسببا خلا واضحا في التحصيل الدراسي، الثاني فهو نفسي سلوكي ويتمثل في حدوث اضطرابا في السلوك والتصرفات.

من أجل إثراء الموضوع من الوجهة النظرية، حاولنا قدر الإمكان إعطاء الموضوع حقه من مختلف المجالات : المجال الديني، النفسي التربوي ومجال علم النفس النمو. هذا ما سمح لنا من تغطية الموضوع من جوانبه المختلفة حتى يحضى بالشرعية العلمية المستحقة.

أما من الناحية المنهجية، لقد اخترنا مجموعة بحث مقدرة ب 18 طفلا، 10 منهم ذكورا و 8 إناثا. بالرغم من أن حجم العينة قليل، إلا أنها معبرة جدا لأن نوعية الدراسة، مثلما وضعته في البداية، ليست دراسة عيادة تهتم بدراسة التنظيم العقلي بالمفهوم التشخيصي الديناميكي، وليست وصفية بحثة تهدف إلى إعطاء دلالات إحصائية دقيقة، إنما هي دراسة نسعى من خلالها دراسة علاقة

سببية بين متغيرين، أحدهما خفي متمثلاً في 'العنف اللفظي' والآخر سلوكي ظاهرياً متمثلاً في 'الاضطراب' السلوكي.

أهم ما توصلنا إليه ونحن نتعاشش، أحياناً لمدة شهور طويلة مع أطفال ومراهقين تلقوا عنفاً لفظياً مجموعة من الاضطرابات تتراوح حدتها ما بين: صعوبة التركيز والانتباه، الفشل المدرسي، الهروب المدرسي، الأفكار الانتحارية، التدخين وأحياناً تصل حدة هذه الاضطرابات إلى تعاطي المخدرات. كما أننا لم نسجل اختلافاً كبيراً بين الذكور والإناث في نوعية الاضطراب، هذا يدل على أن العنف يؤثر بنفس الطريقة تقريباً على الجنسين. أما عامل السن لقد سجلنا أن الأطفال الأقل من 8 سنوات تضرروا أكثر من غيرهم وذلك نظراً لهشاشة نفسياتهم وعدم اكتمال النضج لديهم.

بهذا إن الفرضيتين العمليتين التين انطلقنا منهما أكدتا إلى حد بعيد. من بين ما توصلنا إليه أن العنف اللفظي ترك بصماته مباشرة على الجهاز المعرفي وتسبب في ترك اضطراباً واضحاً فيه.

اعتماداً على النتائج المتوصل إليها في البحث يمكن القول أن العنف اللفظي الصادر من المعلم يحمل ضمناً نوايا عدوانية واتجاهات سلبية تؤثر مباشرة على توازن ونمو الطفل المتمدرس. هذه الآثار يمكن ألتماسها على عدة مستويات:

المستوى النفسي: انخفاض في تقدير الذات، الشك والتردد، أحاسيس الخوف. قد تتحول هذه الأعراض إلى أمراض نفسية مثل الرهاب أو الحصر القهري.

المستوى المعرفي: اضطراباً في الجهاز المعرفي بصفة عامة، من مظاهره: خلط أو تذبذب في المعارف، ضعف التحصيل الدراسي، صعوبة في التركيز، صعوبة الاستيعاب، صعوبة في استرجاع المعارف (اضطراب الذاكرة).

المستوى السلوكي: أول المؤشرات التي تظهر على السلوك نذكر التغيب الدراسي، الهروب المدرسي، التهور والسلوكيات العدوانية، الانضمام إلى جماعات منحرفة تستعمل عادة التدخين الكحول وأحياناً تصل إلى تناول المخدرات.

الأثر الديناميكي العائلي: اضطراباً في الديناميكية العائلية بحيث قد تتحول الصراعات بين التلميذ والمعلم إلى صراعات بين الطفل والأبوين . ردود الفعل العدوانية التي لا يستطيع الطفل إخراجها تجاه المعلم قد يسقطها في وسطه العائلي.

الخاتمة

لقد قمنا بهذه المحاولة قصد إزالة اللبس وتوضيح الرؤية عن نوعية العلاقة بين المعلم والتلميذ والتي اتضح لنا أنها ليست فقط علاقة تابع ومتبوع، صغير وكبير، ملقن لمعارف وحاصل على معارف إنما هي أيضا علاقة مفعمة بالعواطف والوجدانات التي تصاحب باستمرار هذه الصيرورة المتواصلة.

نحن نعلم أن محاولتنا هذه ليست خالية من الهفوات نتيجة صعوبة الموضوع وحساسيته. بالرغم أن حجم عينة البحث ليست كبيرة وبالرغم من أن فرضياتنا لم يتم تأكيدها بدقة، لكننا واثقين على أن التفكير بجدية في هذه الظاهرة مهم وشرعي. تكمن هذه الأهمية في ضرورة تحسين العلاقة بين المعلم والتلميذ بغرض رفع مستوى التحصيل وحماية كرامة الطفل وتوازنه النفسي.

من بين مساعيها هو دق ناقوس الخطر من أجل جذب اهتمام المختصين والمعلمين بهدف توسيع نطاق البحث لمعرفة ما يجري في مؤسساتنا التربوية. ومن باب التوصيات نلح على ضرورة إعادة النظر في كيفية تكوين وتوظيف المعلمين والمربين حتى يرتفع مستوى الوعي لديهم ويعلموا أن مثل هذه التجاوزات تخلف بصمات قد يبقى تأثيرها السلبي مدى الحياة.

المراجع والهوامش

- 1 - سورة إبراهيم، الآية 24 - 26
- 2 - سورة آل عمران، الآية 159
- 3 - الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي (1984) مختصر صحيح البخاري، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ص. 87 - 88.
- 4 - الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي (1984) مختصر صحيح البخاري، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ص. 46.
- 5- Piaget J.,(1936), La naissance de l'intelligence chez l'enfant , Delachaux Nestlé, Paris.
- 6- Wallon H., (1945), *Les origines de la pensée chez l'enfant* ,PUF, Paris.
- 7- SI Moussi A., (2002), (sous la direction de)Elève contre enfant, Enag/Ing, Alger, P. 189.
- 8- Brunet O, (1996), Le développement de l'enfant, savoir faire, savoir dire, PUF, Paris, P.88.
- 9- Debray R. et coll., (1998),*L'intelligence d'un enfant*, Dunod, Paris. P.94.
- 10- Benhalla N., (2009) *Expressions et caractéristiques de la névrose en Algérie* (étude descriptive et clinique sur 300 hommes) . Thèse de Doctorat en psychologie clinique, université d'Oran. P.211.
- 11- Boukhaf M.,(2004), *Adolescents victimes de traumatisme* : Quelle prise en charge ?,in psychologie N°12,SARP, Alger, PP. 37-51
- 12- Mecherbel Ali, *La violence scolaire : un analyseur de l'institution éducative*, in Revue,N° 6 Université Aboubekr Belkaid, Tlemcen, pp 9-19 , P.17.
- 13- Bouchelagheme Yahia. Rôle de l'orientation psychique et éducative pour faire face à la violence dans les structures scolaires. in Revue,* N° 6,Université Aboubekr Belkaid, Tlemcen, pp 140-157.
- 14-Bouchelagheme Y. Rôle de l'orientation psychique et éducative pour faire face à la violence dans les structures scolaires in Revue,N° 6 Université Aboubekr Belkaid, Tlemcen, pp 140-157., P.152.
- 15- زرواتي ر. (2002) تدريسات على منهجية البحث العلمي في العلوم الاجتماعية، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر ص119

16- Perron R. 1997, *La pratique de la psychologie clinique*, Paris ,Dunod, P 38

17 - بكداش ك.، رزق الله ر.، (1988)، *مدخل إلى ميادين علم النفس ومناهجه*، دار الطليعة للطباعة والنشر لبنان.

18 - مقر العيادة التي تمارس بها الكفالة النفسية والعلاج النفسي موجود بالجزائر العاصمة، يشغل بها ثلاثة أخصائيين رجلاً وأمرأتان، يستقبلون بإنتظام الأفراد الذين يطلبون المساعدة النفسية.

19 - المنجد في اللغة العربية المعاصرة (2011)، دار الشروق بيروت لبنان، ص.1025.

20- Sillamy N. (1980),*Dictionnaire de psychologie*, Bordas, P.1226.

21 - المنجد في اللغة العربية المعاصرة (2011)، دار الشروق بيروت لبنان، ص.145.

22-De Ajuriaguerra J., (1980),*Manuel de psychiatrie de l'enfant*, Masson, Paris. P.27-32-35.